فوكو وفلسفة موت الإنسان

أ. يمينة عبيد

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة– الجزائر

ملخص:

إن محاولة تقويض العلوم الإنسانية أو ما يعرف بتناهي الإنسان هي نزعة تميز بها الفلاسفة البنيويون أمثال ليفي شتراوس و جاك لاكان، وحتى فوكو سار على هذا النهج مؤكدا أن هذه العلوم ظهرت في نطاق عملية إعادة التوزيع العام لابستيمي العصر الحديث، إلا أنها تفتقر للدقة والموضوعية وللمنهج العلمي كما أنّ مجالها الإبستيمولوجي غير واضح المعالم، وهي تمثل وسيطا خطيرا في المعرفة وهذا ما يحكم عليها بالزوال والأفول، واندثار هذه العلوم يفتح المجال أمام ظهور اللغة وسيطرتها كمبحث جديد وكعلم يمتلك الشروط الموضوعية للمعرفة، لذا في نظر فوكو أصبحت اللغة هي محور المعرفة في وقتنا الراهن لما تحظى به من اهتمام بالغ من حيث الدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية، الإنسان، الإبستيمي، الموضوعية، الذاتية، الدقة، المنهج العلمي، التناهي، الزوال، اللغة.

Abstract :

The trying of destroying human sciences or what is know as the end of human being is the tendency of the structuralist philosophers like Levi StraussS and Lacan, even Foucault has the same way insisting that this sciences has begun in order to re-spread epistemy of the modern centuary but it lacks accuracy, objectivity and the scientific syllabus.Also, its field of epistemology is not clear and it is a dangerous intermediam in the knoweldge this is why it is condemned by disappearance and decline,

and the ending of this sciences leads to the appearence of alanguage and its importance as new project also as science that contains objective conditions of knowledge ; This is why in the opinion of Foucault, language is the center of knoweldge in our time because of its importance in learing and analysing.

Key Words:

Human science, humain being, episteme, objectivity, subjectivity, exactness, exactness, scientific method, finud, extinction, language.

تمهيد:

منذ أن أعلن نيتشه عن موت الإله والذي سيعقبه بالضرورة موت الإنسان كذلكبرزت وتنامت فلسفة تتبنى أفول الإنسان خاصة من الناحية المعرفية، وهذا التأثير امتد إلى ميشال فوكو الذي بدوره أكد على تناهي الإنسان وحاول نقد العلوم الإنسانية التي تهتم بدراسة الإنسان في أبعاده الثلاث (البعد التاريخي، النفسي والاجتماعي) مستثنيا نظرية التحليل النفسي لفرويد لأنها في نظر فوكو لا تمتلك مقومات وشروط العلم من منهج ودقة، على هذا الأساس تنبأ فوكو بزوال العلوم الإنسانية وهذا الاندثار سيغر الأرضية الفكرية لبنية المعرفة ولتكوينها الابستيمولوجي الذي يفرض سيطرة اللغة كمبحث وعلم جديد، فإذن ماهي الأسباب التي ستؤدي إلى أفول العلوم الإنسانية في نظر فوكو؟ وماهي المعالم الابستيمية للمعرفة في ظل هذا التغيير؟

إن العلوم الإنسانية هي مجموعة المعارف والعلوم التي تهتم بدراسة الإنسان سواء التأريخ لأزمنته أو تشخيص فكره أو تحليل سلوكاته، وهذه العلوم تولدت عنها ما يعرف بالنزعة الإنسانية التي يعتقد ميشالفوكو Foucault Michel أنها تشكلت انطلاقا من أفكار "ماركس Marx" و"هيجل Hegel"، وقد صرح بضرورة تقويض هذه النزعة وهذا ما أكده في حوار له سنة 1969 إذ قال "إن النزعة الإنسانية هي أثقل ميراث انحدر إلينا من القرن التاسع عشر... وقد حان الأوان للتخلص منه، ومهمتنا الراهنة هي العمل على التحرر نهائيا من هذه النزعة".

إن العلوم الإنسانية في رأي فوكو حديثة النشأة لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، حيث لا يوجد لها أي أثر في العصر الكلاسيكي (القرن السابع عشر)، إذ "لم يكن هناك وجود للإنسان قبل نهاية القرن الثامن عشر، لا لزخم الحياة أو خصوبة العمل أو كثافة اللغة التاريخية. إنه مجرد مخلوق حديث أبدعه العلم منذ أقل من مئتي سنة، لكنه ما لبث حتى هرم بسرعة فائقة حتى يتخيل المرء بسهولة أنه كان منتظرا في الظلام منذ آلاف السنين اللحظة التي يعود فيها إلى النور ويعترف به بعد طول الانتظار"[1].

لم يكن للعلوم الإنسانية وجود في العصر الكلاسيكي، بحيث لا يمكن العثور إطلاقا على علوم تتناول الإنسان كموضوع للدراسة، لأن العلوم الإنسانية تتجه إلى الإنسان من حيث هو يحيا ينطق وينتج، فالعلوم السائدة في القرن السابع عشر لم تكن تتناول من هذه الجوانب، بل تهتم بالعلم في حد ذاته كمجموعة من المعايير والقوانين، ولو عدنا فعلا إلى هذه العلوم لوجدناها خالية من هذه الابعاد، فعلم الرياضيات مثلا الذي كان سائدا في العصر الكلاسيكي لا يهتم بالإنسان ومشاكله وقضاياه إطلاقا، بل هو علم مجرد يهتم بدراسة المفاهيم المجردة أي الكم بنوعيه سواء كان متصلا أو منفصلا. والأمر نفصله ينطبق على تحليل الثروات فهذه المعرفة كذلك لا يمكن إدراجها ضمن العلوم الإنسانية فهي متعلقة بالطبيعة والعمل أكثر. إذن العلوم الإنسانية لم يكن لها مجال أو ميدان محدد مسبقا، بل ظهرت لظروف جديدة فرضها الإنسان نفسه، "إن العلوم الإنسانية لم ترى حقلا قد رسمت معالمه وربما قدرت تقديرا إلا أنه ترك بوارا يترب عليها تطويره استنادا إلى مفاهيم علمية ومنهجيات وضعية، فالقرن الثامن عشر لم ينقل إليها تحت اسم الإنسان أو الطبيعة الإنسانية حيزا محددا من المخارج، لكنه بقي فارغا وتكون مهمتها هي الإحاطة به وتحليله، فالحقل المعرفي الذي تدور العلوم الإنسانية في فلكه لم يفرض سلفا، فليس هناك من فلسفة من خيار سياسي أو أخلاقي من علم تجريبي مهما كان نوعه من دراسة لجسم الإنسان من تحليل للإحساس أو المخيلة أو الأهواء صادفت يوما في القرن

السابع عشر أو الثامن عشر شيئا فشيئا يشبه الإنسان ذلك لأن الإنسان لم يكن موجودا آنذاك (ولا حياة ولا اللغة ولا العمل)"[2]، وهذا يعني أن الإنسان لم يظهر كموضوع في العصر الكلاسيكي، والأمر كذلك بالنسبة للعلوم التي ظهرت في العصر الحديث، وهي: الحياة، اللغة والعمل كذلك ليس لها أثر قبل العصر الحديث.

إن ظهور العلوم الإنسانية في الحقيقة له أسباب الموضوعية والتاريخية وحتى العلمية منها، وقد حاول فوكو أن يحصرها في أربع أسباب معقولة يمكن إدراجها كالتالي:

السبب الأول: توجه الإنسان نحو دراسة "الإنسان" من الناحية السوسيولوجية والسيكولوجية، بعد أن نال هذا الإنسان الاهتمام في العلوم التجريبية، والتي لا يمكن قيامها دون التركيز على دراسة الإنسان طبعا من الناحية الفزيولوجية والسوسيولوجية والفيزيائية، إذ يقول فوكو "إن نمط وجود الإنسان كما تشكل في الفكر الحديث يعود لكونه موجودا في أساس كل الوضعيات وحاضر بطريقة لا يمكن اعتبارها متميزة في عنصر الأشياء التجريبية"[3].

السبب الثاني: لقد فرض الإنسان نفسه في الثقافة الغربية في العصر الحديث، فأصبح هو جوهر المعرفة والفلك الذي تدور حوله، لذلك كان لزوما تشكل علوم جديدة تهتم بدراسته، لا من الناحية التجريبية فقط من الناحية النفسية والاجتماعية كذلك، هذا دون إهمال التحليل اللغوي السلوكي، "فالعلوم الإنسانية إذ ظهرت يوم فرض الإنسان نفسه في الثقافة الغربية لاعتباره هو ما يجب التفكير به، وهو ما يجب أن يعرف في آن معا"[4].

السبب الثالث: لكل عصر مشاكله وقضاياه، والعصر الحديث حمل في طياته مشاكل جديدة لم يكن للإنسان معرفة سابقة بها، خاصة ما أنجز عن الثورة الصناعية الثانية (القرن التاسع عشر 19)، بالإضافة إلى القضايا جديدة متعلقة بالجانب النفسي

وحتى الاجتماعي التي ترجمت حاجات وطموحات الإنسان المعاصر، وربما معاناته ومأساته كذلك. لذا يقول فوكو "لا شك أن البروز التاريخي لكل من علوم الإنسان حصل بالتزامن مع مشكلة ما، أو حاجة ملحة، أو عقبة نظرية كانت أم علمية، وكان بالطبع لا بد من ظهور المعايير التي فرضها المجتمع الصناعي على الأفراد كي تنشأ البسيكولوجيا وتتكون شيئا فشيئا كعلم خلال القرن التاسع عشر، وكان لابد أيضا دون أي شك من بروز المخاطر التي أخذت منذ الثورة الفرنسية تضغط على التوازنات الاجتماعية كي يظهر فكر ذو طابع سوسيولوجي"(5).

السبب الرابع: إن القطيعة التي حدثت بين العصر الكلاسيكي والعصر الحديث أدت إلى تغيير جذري في خريطة العلوم والأولويات، حيث ظهرت علوم جديد تتماشى مع العصر/ من خلال إعادة توزيع الإبستيمية(*) التي هاجرت من النظام لتستقر في إبستيمية الإنسان، الذي أصبح جوهر بحثها ومحور اهتمامها، إذ يؤكد فوكو أنه "طرأ هذا الحدث (أي ظهور العلوم الإنسانية) بدوره في ضوء إعادة توزيع شامل للإبستيمية: فما انفكت من حيز التمثيل حتى انخرطت الكائنات الحية في عمق الحياة واستقرت الثروات في زحم أشكال الإنتاج المتصاعد وسكنت في سيرورة اللغات، وكان لابد لمعرفة الإنسان أن تظهر في هذه الظروف"(6).

إن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى ظهور العلوم الإنسانية التي كانت ولازالت في صراع دائم مع العلوم الطبيعية، إذ تدعي الأولى بإصرار أنها هي التي تبرر الثانية أي تؤسسها، وهذا يعني أن العلوم الإنسانية هي التي تبرر وجود العلوم الطبيعية التي يمكن أن تكون مجرد تكملة لها في ضوء هذا الصراع، لكن تبقى العلوم الإنسانية في نظر فوكو أقل قيمة من العلوم الطبيعية.

صنف فوكو علوم العصر الحديث إلى ثلاث مجموعات هي: أولا الرياضيات والفيزياء، ثانيا العلوم التجريبية والتي تضم في طياتها (البيولوجيا، اللغة والاقتصاد) وأخيرا التأمل الفلسفي، وقد أقصى العلوم الإنسانية من تصنيفه هذا واعتبرها مجرد

حقل مشترك بين هذه العلوم، ويمكن أن تقع بجوارها وعلى حدود هذه العلوم مباشرة، وهذا ما يوضحه الشكل التالي(**):

وهذا التصنيف للعلوم يتجسد في قول فوكو التالي: "من الأجدر بنا أن نتمثل حقل الإبستمية الحديثة كمجال ذي حجم يمتّد على أبعاد ثلاثة، فتقع العلوم الرياضية والفيزيائية وهي التي تنتظم في سلسلة مقولات استنتاجية خطية إما بديهية وإما محققة، على أحد هذه الأبعاد، وتقع مثلا على بعد آخر علوم كعلوم اللغة والحياة وإنتاج الثروات وتوزيعها...، أما البعد الثالث فيمكن أن نخص به الفكر الفلسفي... ويحدد البعد الفلسفي مع البعد الخاص بالألسنة والبيولوجيا والاقتصاد سطحا مشتركا...أما العلوم الإنسانية فقد استبعدت عن هذا الجرم الثلاثي السطوح بمعنى أنه لا يمكن الوقوع عليها على أيّ من أبعاده أو مسطحاته، غير أنه لا يمكن القول أيضا إنها موجودة ضمنه، إذ تجد مكانها في ثغرات تلك المعارف أو بالأحرى في المجال الذي تحدده أبعاده الثلاثة"(7). ويؤكد فوكو أيضا في سياق آخر أنه بإمكاننا إذن أن نحدد موقع علوم الإنسان في حوار هذه العلوم التي تتعلق بالحياة، العمل، اللغة وعلى تخومها مباشرة وعلى مداها كلية.

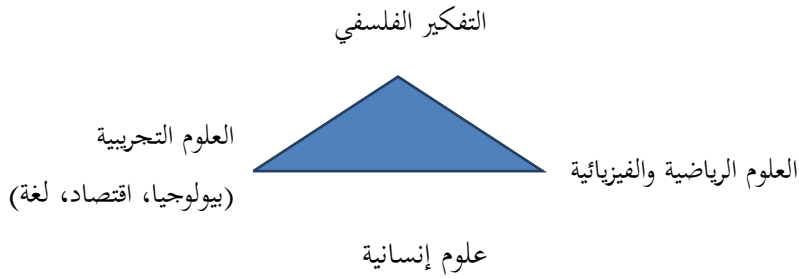

إن مكانة العلوم الإنسانية التي حددها فوكو هي مكانة ثانوية، أقل قيمة من بقية العلوم، ثم إن الدور الذي تلعبه يبقى غامضا غير واضح لأنها لا تملك مجالا محددا أو منهجا صارما كبقية العلوم، لذا نفى عنها فوكو صفة العلمية، "إنه لا يعترف لتلك العلوم بالصفة العلمية"([8])، وهذا يعود لأسباب موضوعية عند فوكو فالعلوم الإنسانية في نظره غير مستقرة، وغير دقيقة كبقية العلوم، ثم أنها أخيرا تتميز بتعقيد تشكيلها الإبستمولوجي نظرا لتفرعاتها، وتعدد مباحثها فتارة تبحث في الأنساق التاريخية، وتارة أخرى تبحث في البنى السيكولوجية والسيكوباتية للإنسان، ومرة تنزلق في مدارات العلاقات الاجتماعية بكل تناقضاتها، وهذا ما يخلق التعقيد وصعوبة الدراسة. ناهيك عن التغير المستمر المرتبط أساسا بتغير الإنسان الذي ينتقل من حالة إلى حالة أخرى عبر الزمان والمكان.

هذا دون أن ننسى صفة الذاتية التي يتميز بها الإنسان، فلكل فرد تجاربه الخاصة التي قد تختلف جذريا عن تجارب الآخرين، انطلاقا من هذا اعتبر فوكو العلوم الإنسانية وسائط خطيرة في المجال المعرفي لأنها تشوه الحقائق بل قد تطمس المعارف، وتنحدر بها نحو الدرك الأسفل أين تنعدم العملية والدقة. وقد صرح فوكو بهذا حين قال: " العلوم الإنسانية تبقى وسيطا خطيرا في حيز المعرفة، حتى ولو لم يعد الإنسان سيدا في مملكة العالم، ولم يعد يهيمن في وسط كينونته، لكن في الحقيقة هذا الوضع هو الذي يحكم عليها بعدم الاستقرار في أساسها، فإن ما يفسر صعوبة العلوم الإنسانية وعدم ثباتها، وعدم دقتها كعلوم وألفتها الخطرة من الفلسفة...وطابعها الثانوي دوما والمشتق بالرغم من ادعائها الشمولية، ليس كما يشاع غالبا، هو ما يشكل أعلى كثافة لموضوعها وليس أيضا الوضع الميتافيزيقي لذلك الإنسان الذي تتكلم عليه الذي لا يمحى بل هو تعقيد التشكيل الابستمولوجي الذي تقع داخله، وعلاقتها الثابتة بالأبعاد الثلاثة التي تحدد حقلها"([9]).

يمكن أن نستخلص تبريرا آخر لرفض فوكو أن تكون العلوم الإنسانية تملك القابلية لأن تكون علوما حقيقية وبكل المقاييس، لأنها لم تتحرر من سلطان وقيود الميتافيزيقا، التي تبقى سجينة لها وتعمل دائما على إعادة إنتاجها وتكرارها، هذا باعتبار أن الإنسان قد يحدث ثورة جديدة باعتباره ذاتا وموضوعا في الوقت نفسه أي دارسا ومدروسا، وهذا يعني أنه واقعة خاضعة للدراسةّ، وشرط قبلي لإمكانية كل المعارف في آن واحد، والعنصر الأخير هو يندرج ضمن الميتافيزيقا لأنها هي التي تهتم بالمبادئ القبلية، بالإضافة إلى أن الإنسان كائن يجمع بين المتناقضات فهو المفكر الذي يدرس ويحلل المفكر فيه، هو الكائن الذي يجمع بين الشعور واللاشعور، إن المتناقضات كذلك من مباحث الميتافيزيقا، والعلم الوضعي يسعى بشتى الطرق إلى تبني الحقائق الملموسة والموضوعية فقط، وأخيرا الإنسان يعتبر "نتاج قديم وغابر يمتد وراءه بعيدا بحيث يستحيل الوقوف عند أصله وبدايته وفي الوقت نفسه كمصدر وحيد لإثارة ومعرفة نقطة البدء، وهنا يتيه الإنسان بين نفق الاحتمالات ونزق التخيلات، فيكوّن معرفة أقل ما يقال عنها أنها مثالية متعالية وهذا ما يجعلنا نصفها بالميتافيزيقية.

وكما هو معلوم الفلسفة الوضعية تنفي الميتافيزيقا، وتحاول إبعادها وإلغاءها قدر الإمكان عن مجالها.

كل هذه المعطيات جعلت فوكو يبشر بأفول الإنسان أي العلوم الإنسانية، مثلما فعل من قبل هيدجر Heidegger وليفي ستراوس Levi Strauss، وقد كرس هذا في فكره، حيث أكد في عدة مناسبات أنه يجب التخلص من النزعة الإنسانية ففي حقل العصر الحديث يظهر الإنسان متناهيا محددا في كثافة مالا يفكر به، وخاضعا في صميم كينونته ذاتها لبعثرة الزمن.

إن الإنسان يتجه نحو التناهي ومصيره الموت في نظر فوكو، فالعلوم الإنسانية التي ظهرت في القرن التاسع عشر أي قبل مائتي سنة سيكون مصيرها الأفول لأن

الأوضاع والظروف الراهنة خاصة شروط قيام العلوم الوضعية لم يعد يسمح ببقاء العلوم الإنسانية التي يفضل فوكو أن يطلق عليها اسم "مجموعة من الخطابات" بل لم يترك لها مساحة لتستقر فيها كل هذه المعطيات "تدل ولا شك على أن الإنسان مشرف على الموت"(10).

إن فوكو ما فتئ يكرر أن الإنسان اختراع حديث العهد وصورة لا يتجاوز عمرها مائتي سنة، بل هو مجرد انعطاف في معرفتنا وسيختفي نهائيا عندما تتخذ المعرفة شكلا آخر جديدا، فهو ينذر بنهاية عهد الإنسان الذي أنجبه العصر الحديث بكل معالمه : الإنسان الواعي والعارف المسؤول، إنسان الحقوق والواجبات، الإنسان الطموح، الإنسان المسيطر على تاريخه والمتحكم فيه، الإنسان المفكر...هذا الإنسان في نظر فوكو آيل إلى الممات، ليس له ماض ولن يكون له مستقبل أبدا، عما قريب سيختفي وباختفائه تتوارى النزعة الإنسانية : من تاريخ وفكر جدلي وأحلام وتحرر...إلخ.

"إن الإنسان الحديث ليس في نظر فوكو أكثر من حدث معرفي مؤقت، عملت على ظهوره مجموعة من الشروط والأوليات التي صنعت ثقافة القرن التاسع عشر، ومحكوم عليه بالاندثار عندما تبدأ أسس تلك الثقافة في التصدع، ليس أكثر من ومضة عابرة على سطح المعرفة، من أسطورة حديثة حبكها فكر القرن التاسع عشر. أما الثقافة الجديدة التي ينتمي المشروع الفكري لفوكو فهي التي بدأت تملأ الفراغ الذي خلفه اختفاء الإنسان واندثار أسطورته"(11).

إن فوكو يؤكد أن الإنسان ليس أقدم مشكل طرح على المعرفة البشرية، ولا يمكن أن يكون بالمقابل الخالد الذي سيظل يحتل مساحة الاهتمام عندنا باستمرار، ولا يعود سبب بروزه على الساحة الفكرية في القرن التاسع عشر إلى تقدم حصل على مستوى الوعي الإنساني، أو بسبب تحرر الفكر من أوهام لازمته عصورا طويلة، بل كشفت

أركيولوجيا فوكو الإنسان ابتكار حديث، تزامن ظهوره مع التحول المفاجئ الذي حصل على مستوى الأجهزة الأساسية للمعرفة في العصر الحديث، وهو مجرد مفهوم مؤقت، وقناع ثقافي استوجب ظهوره نظام المعرفة في إطار النسق المعرفي لهذه الفترة بالضبط، أما بعد أن انتهت فترة الترقية إلى الوجود الابستمولوجي، فإن ذلك القناع يجب أن يتمزّق ويتلاشى ويضمحل مع مرور الزمن، وهكذا يعود الإنسان إلى مكانه الأصلي إلى ما كان عليه من قبل، كائن مثل باقي الكائنات لا غير. إن اختفاء الإنسان مرهون بتصدع صرح النظام المعرفي الذي حمله إلى الوجود، وهذا ما يبشّر به فوكو سيختفي الإنسان وتختفي معه علومه، ليدع المكان لفكر جديد متحرر من كل نزعة إنسانية.

وليس أبلغ من قول فوكو الذي بشر فيه بنهاية الإنسان وعلومه ككل إذ يقول: "إن الإنسان لي أقدم ولا أثبت إشكالية طرحت ذاتها على المعرفة الإنسانية، فإن اعتمدنا تعاقبا ضيقا نسبيا في التاريخ، وتقطيعا جغرافيا ضيقا في الثقافة الأوروبية منذ القرن السادس عشر- يمكننا التأكيد أن الإنسان هو اختراع حديث فيها، فالمعرفة لم تحوّم طويلا في الظلمة حوله وحول أسراره، في الواقع ومن بين كل المنعطفات التي طرأت على المعرفة الأشياء ونظامها، على معرفة التوافقات، المماثلات، والاختلافات والمميزات والتعادلات والكلمات، باختصار في مركز كل حلقات هذا التاريخ العميق للواحد ذاته، هناك حلقة واحدة فقط، تلك التي بدأت منذ قرن ونصف قرن والتي قد تكون في طور الانتهاء قد سمحت بظهور وجه الإنسان... بل كان حقيقة تغير طرأ على الجاهزيات الأساسية للمعرفة، فالإنسان اختراع تظهر أركيولوجيا فكرنا بسهولة حداثة عهده، وربما نهايته عن قريب... إن الإنسان سوف يندثر مثل مساحة من الرمل مرسومة على شاطئ البحر"[12].

إن فوكو يؤكد أن الفكر المعاصر لم يعد بإمكانه التطور والازدهار إلا بغياب الإنسان، والقضاء على النزعة الإنسانية، وتجدر الإشارة إلى أن فوكو يؤكد بأن فضل

ظهور هذه الفكرة يعود لنيتشه Nietzsche الذي أعجب فوكو بفكره، لقد كان في نظره أول من تنبأ بأن موت الإله سيعقبه بالضرورة موت الإنسان، وأي إنسان إنه إنسان القيم، الذي سيخلفه الإنسان الأعلى. لقد كانت التجربة الفلسفية لنيتشه أول مجهود يبذل في الفلسفة الحديثة من أجل إيقاظ الفكر من سباته الأنثروبولوجي، ومن أجل استئصال جذور النزعة الإنسانية والتاريخ، ففوكو الرافض للعلوم الإنسانية ينفي عنها صفة العلمية، فهي ليست علوما زائفة فقط، بل ليست علوما على الإطلاق. ومن ضمن هذه العلوم نجد علم التاريخ والاجتماع وعلم النفس وحتى الدراسات الأدبية، ويستثني منها علوما أخرى كاللسانيات والتحليل النفسي إلى جانب الأنثروبولوجيا، هذه العلوم نالت إعجاب فوكو إلى حد مذهل وقد أطلق عليها اسم "العلوم المضادة"، أي أنها ضد العلوم الإنسانية لأن موضوعها هو اللاشعور.

ويقصد فوكو باللسانيات: اللسانيات البنيوية خاصة الفونولوجيا التي قدمت تصورا جديدا عن اللغة، باعتبارها نسقا مكتفيا بذاته، وهذه العلوم القائمة على اللاشعور يمكن اعتبارها علوما بكل المقاييس، لأنها تملك قواعدها الخاصة، وفي هذا الصدد كتب فوكو "لقد حاولت الكشف عن ميدان مستقل ذاتيا قد يكون ميدان لا وعي العلوم أو لاشعور المعرفة وقد يملك قواعده الخاصة"(13).

إن جهود فوكو النظرية في محاولة لتقسيم العصور وتصنيف العلوم كانت غايتها التأكيد على تناهي الإنسان، وضرورة القضاء على النزعة الإنسانية، وهذه العلوم التي نشأت حديثا إثر طفرة أركيولوجية ما تفتأ أن تسير نحو الزوال تلقائيا، فالعصر الحديث في نظر فوكو حمل في طياته انقلابات كبرى، فمع ميلاد العلوم الإنسانية التي جاءت نتائجها عكس الغايات التي حددت سلفا لوجودها، عرفت اللغة منعرجا جديدا حيث لملمت أوصالها وعرفت تألقا وحازت اهتماما ضاهى اهتمام الإنسان بقضاياه المصيرية، وأن هذا العصر نبأ بأفول الإنسان وسيره نحو التناهي، وخط علاقة جديدة إنها علاقة

عكسية بين العلوم الإنسانية واللّغة؛ وقد عبر فوكو بصدق عن حقيقة هذه العلاقة حين قال: "إن كل الإبستيمية الحديثة تلك التي تكونت في أواخر القرن الثامن عشر ومازالت تشكل الأرضية لكل معارفنا، تلك التي صنعت صيغة كينونة الإنسان المتميزة، وإمكانية معرفته تجريبيا، كانت تلك الإبستيمية برمتها مرتبطة بموت الخطاب واندثار سلطانه الممل وبتوجه اللغة ناحية الموضوعية وبظهورها مجددا بأشكال متعددة ولئن برزت هذه اللغة ذاتها الآن بإلحاح متزايد في الوحدة .يتوجب علينا أن نفكر أنه لا نستطيع ذلك بعد، أليسفي ذلك إشارة إلى أن كل هذا التشكيل سوف ينقلب الآن، وأن الإنسان هو في طريقه إلى الزوال، بينما تزداد كينونة اللغة في سمائها لمعانا ووهجا، ربما أن الإنسان تكوّن حين كانت اللغة محكومة بالتبعثر ألن يتبعثر هو الآن فيما اللغة تلملم أوصالها؟"(14).

التلقي النقدي لموقف فوكو من العلوم الإنسانية:

لقد تباينت مواقف المفكرين من فكرة تناهي الإنسان التي تبناها فوكو بين معارض ومؤيد ومن أبرز المؤيدين لهذا الطرح المفكرة الأمريكية اديث كيروزيل Kirozel Edith التي أبدت إعجابها بفكرة أفول الإنسان وعلومه إذ أكدت صحة نبوءة فوكو لأن اللغة أصبحت موضوع العصر، ومحور اهتمام جميع الحقول المعرفية، حتى الإنسان صار مشدودا إليها وغارقا في البحث في أنساقها ودلالاتها، ولا تخفي كيروزيل إعجابها كذلك بفوكو إذ تقول" وفوكو نفسه بمدخله غير التاريخي الذي يرقب منه العملية أو المتصل الذي يوشك على الانكسار يبدو كأنه واحد من الأنبياء، أما نبوءته عن النهاية فتبدو متينة الأساس لأننا على أهبة انقطاع ليس في المعرفة فحسب بل في الممارسة وإذا كان الحق معه، وإذا كانت حقبة الإنسان قد انتهت، فان تحليله ينطوي بالفعل على بذور الحقبة القادمة. أما جدية فوكو التي تقدر موضوعيا قدر كل فلسفة ومعرفة، وتتجاوز كل فلسفة ومعرفة، فإنها تستدير إلى نفسها بالسخرية، متجنبة التبسيط والاختزال

المخل، لتجعل منه واحدا من عباقرة عصرنا، حتى ولو ظلت شفراته المعرفية مطمورة إلى الأبد"[15] .ويعتبر الفيلسوف الفرنسي فرانسواشاتلي Châtelet François من أكبر المناصرين فكرة تقويض العلوم الإنسانية ففي مقال له بعنوان "الإنسان هذا النرجسي المريب" أكد على صحة أفكار فوكو المتعلقة بموت الإنسان وانه قد أبدع فعلا في تحليله ودراسته لهذا الموضوع خاصة من الناحية الابستيمولوجية النقدية "فهو نقد سنعرف من خلاله انطلاقا من أية أفكار ومن أي نسق للأفكار تتكون هذه العلوم الإنسانية المشهورة التي تتوسع بشكل مغضب ومثير"[16]. وتجدر الإشارة إلى أن هناك العديد من المفكرين الذين استحسنوا هذه الفكرة نذكر منهم فرانسوا فال François Wahl، أوليفي ريفودالو Olivier Revault D'allonnes وجاك دريدا Derrida.

وكما كان لفوكو مؤيدين كان له العديد من المعارضين أبرزهم جون بول سارتر Sartre John Paul الذي انتقد بشدة موقف فوكو من العلوم الإنسانية وذلك من خلال مقابلة صحفية أجرتها معه مجلة القوس L'arc مؤكدا أن تحامل فوكو على العلوم الإنسانية أمر مبالغ فيه فلا يمكن أبدا الحديث عن أي معرفة في غياب الإنسان وموته، وتبشير فوكو بتناهي الإنسان في نظر سارتر ما هو إلا إيديولوجيا جديدة تجسد الوجه الأخر للبرجوازية حيث يتهم فوكو صراحة ويعلن "أنه (فوكو) الخادم الأمين للبرجوازية"[17] لأن هذه الأخيرة هي الحاجز الأكبر في وجه النزعة الإنسانية، ثم يواصل سارتر انتقاده لفوكو موضحا أن بنية الفكر وتشكله المعرفي إنما يتحكم فيه الإنسان "فالبنيات لا توجد من عدم وإنما هناك من أوجدها ألا وهو الإنسان "[18]، فلا مجال إذن للحديث عن موت الإنسان في نظر سارتر لأنه محور المعرفة ومحركها، وفي السياق نفسه اعترض روجي غارودي Roger Garaudy على فكرة تناهي الإنسان والعلوم الإنسانية عند فوكو إذ يعتقد أن هذه الفكرة غير مؤسسة وغير مشروعة إذ يقول ساخرا: "فهل سنشيد النظريات حول فشل مؤقت للإنسان،

فلا نعود نرى فيه سوى قراقوز يتحرك على خشبة المسرح بحبال البنى، ولا نقابل من يتكلم عن تحريره إلا بذلك الضحك الازدرائي الصامت المميز للتهكم الفلسفي الذي لمح إليه فوكو؟"[19]. يرى غارودي في أفكار فوكو نوع من التهكم لأنه يصر على موت الإنسان، وموت العلوم المتعلقة به، وهذا ما يوقع فوكو في تناقض إذ يقول غارودي في هذا الصدد: "وبكلمة واحدة لا يمكن أن توجد علوم الإنسان إلا متى كف الإنسان عن الوجود"[20]، والنتيجة الأخيرة تعني عدم وجود العلوم الإنسانية وحتى الرياضية والتجريبية... الخ وحتى عالم النفس السويسري ذو النزعة البنيوية جون بياجي Jean Piaget انتقد فوكو في حقده غير المبرر على الإنسان واحتقاره للعلوم الإنسانية- رغم أنه كان معجبا بفلسفة فوكو وكثيرا ما أشاد بها خاصة في تحليله لاستراتيجيات السلطة ونقده لآليات الإخضاع والهيمنة وتعرية الممارسات اللاإنسانية للسلطة كالحجز والعقاب ـ كما انتقده في اهتمامه باللغة على حساب الإنسان إذ صرح بياجي: " النقطة الثابتة في هذه اللاعقلانية الأخيرة عند فوكو هي الرجوع إلى اللغة المصممة على السيطرة على الإنسان لأنها خارجة عن الأفراد، ولكن حتى كينونة اللغة تبقى طوعية وتشكل بالنسبة إليه نوعا من الغموض"[21]. وهذا يعني في نظر بياجي أن اللغة كمبحث معرفي لا تختلف عن العلوم الإنسانية فهي كذلك تمتاز بتعقيدها وتغيرها وعدم استقرار مجالها الابستيمولوجي.

خاتمة:

في الأخير وبناء على ما تقدم ذكره نستطيع القول أن فوكو أكد على موت الإنسان وتناهيه وهو لا يقصد بذلك الكائن البشري (الإنسان بلحمه ودمه)، بل يقصد بذلك العلوم المتعلقة بدراسته التي مازالت تفتقر لشروط المعرفة العلمية وللمنهج الدقيق وللضبط والموضوعية، ناهيك عن العوائق الابستيمولوجية المختلفة التي تحول دون تحقيق الدقة على مستوى هذه العلوم التي تشكل في الوقت نفسه ذاتا دارسة وموضوعا

للدراسة، ولكن رغم ذلك الواقع يثبت تطور هذه العلوم تدريجيا بفضل ضبط موضوعاتها ومناهجها؛ واكبر دليل على ذلك ما حققه علم النفس من نتائج مذهلة خاصة علم النفس الإكلينيكي، إلى جانب تحسن الدراسات السوسيولوجية وضبطها خاصة بعد اعتمادها على معطيات علم الإحصاء والأمر نفسه ينطبق على علم التاريخ، وقد أصحبت لهذه العلوم فروع مختلفة واكتسحت جميع المجالات. ألا يعني هذا سيطرة العلوم الإنسانية وبقائها بدل أفولها وزوالها كما تنبأ فوكو؟إن هذا السؤال يفرض نفسه بقوة بعد أن أوجدت العلوم الإنسانية لنفسها مكانة لها بين بقية العلوم الوضعية.

الهوامش:

(1)- Michel Foucault, les mots et les choses, Editions Gallimard , Paris, 1966, P319.
(2)- P355.
(3)- Ibid, P356.
(4)- Ibid, P356.
(5)- Ibid, P357.

(*)- **الإبستيمية** "Epistémi": هو مصطلح من وضع فوكو ويقصد به مجموع العلاقات التي تميز مرحلة معينة أو مجموع المقولات الموضوعية التي تحدد الانفتاح على مختلف العلوم والمعارف في الفترة الزمنية الواحدة، لهذا لجأ فوكو إلى تقسيم العصور إلى ثلاثة مراحل حسب الخصائص الإبستيمية السائدة في تلك العصور وهي: إبستيمي عصر النهضة، إبستيمي العصر الكلاسيكي وإبستيميالعصر الحديث.

(6)- Michel Foucault, les mots et les choses, op.cit, P357.

(**)- نقلا عن هاشم صالح، نحو ثورة في الفكر الحديث، مجلة مواقف، دار المشرق، بيروت، العدد 47-48، 1983، ص 123.

(7)- Michel Foucault, les mots et les choses, op.cit, P358.

(8)- عبدالرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1992، ص 133.

(9)- Michel Foucault, les mots et les choses, op.cit, P359.
(10)- Ibid, P396 .

(11)- عبدالرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر ،مرجع سابق، ص130.

(12)- Michel Foucault, les mots et les choses, op.cit, P398 .
(13)- Entretien avec Michel Foucault, la quinzaine littéraire, Paris, 1968.14
(14)- Michel Foucault, les mots et les choses, Op.cit,P397.

(15)- اديث كيروزيل، عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، ترجمة جابر العصفور، دار العيون، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1986، ص ص 239-240.

(16)- François Châtelet, L'Homme ce narcisseincertain, in la quinzaine littéraire , N°2, Paris, Avril 1966, p 19 .

(17)- entretien avec John Paul Sartre, In revue L'arc N°30, Paris, 1966, P 87.
(18)- Ibid, P88.

(19)- روجي غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1981، ص116.

(20)- المرجع نفسه، ص 45.

(21)- جون بياجي، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1985، ص 109.

قائمة المصادر و المراجع:

المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

1- Entretien avec Michel Foucault, la quinzaine littéraire, Paris, 1968.
2- Entretien avec John Paul Sartre, In revue L'arc N°30, Paris, 1966, P 87
3- François Châtelet, L'Homme ce narcisseincertain, in la quinzaine littéraire , N°2, Paris,Avril 1966, p 19 .
4- Michel Foucault, les mots et les choses, Editions Gallimard , Paris, 1966.

المصادر والمراجع باللغة العربية:

1- اديث كيروزيل، عصر البنيوية من ليفي ستراوس إلى فوكو، ترجمة جابر العصفور، دار العيون، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1986.
2- جون بياجي، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1985 .
3- روجي غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1981.
4- عبدالرزاق الدواي،موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1992.
5- هاشم صالح، نحو ثورة في الفكر الحديث، مجلة مواقف، دار المشرق، بيروت، العدد 47-48، 1983.